الحسناء

الجزء الثاني — المجلد الاول

بيروت في ٢٠ تموز سنة ١٩٠٩

مدام رولان

خدم الانسانية في الثورة الفرنساوية كثير من السيدات وكن فيها مثالاً لمكارم الاخلاق ونبراساً للحرية والاخاء والمساواة بعد ان هيجن الافكار ونشطن الهمم وجاهدن جهاد الابطال للخلاص من الاستبداد والظلم ولاصلاح العادات والقوانين والنظامات . اشهرهن اثنتان مدام دي ستال المكتوبة سيرتها في الجزء الاول من الحسناء ومدام رولان موضوع هذه السطور

بيد انهما وان تشابهتا بالشهرة ما تشابتا بالحظ اذ لم تنج الثانية من غوائل الثورة كالاولى ولا فازت مثلها بحقن الدماء وتخليص الابرياء ولا عاشت لترى شيئاً مسراً من نتائج جهادها في سبيل خير بلادها بل قضت شهيدة الحرية على مذبح الفظاعة في هيكل الفوضى فحق لاسمها ان يحيى ولذكرها ان يخلد

ولا ريب في ان السيدة العظيمة التي تنبغ من بين جدران الخمول وترتقي من الكوخ الى القصر ناهضة من احضان العامة الى صدور مجالس الخاصة وتشجع قرينها على اقتحام العظائم وترشده في الادارة والسياسة وتوصله الى منصة الوزارة وبعد ان تسبب عزله منها تعيده اليها رغم ارادة

مدام رولان

من السجن الى الاعدام

الملك واعوانه وتضرم نيران الثورة الاصلاحية ولما ترى جموح نفوس الثوار تقاومهم لكبحها وتذهب ضحية هذا العمل المبرور فيستصعب قرنها بعدها الحياة ويكره الدنيا فيتحر — لا ريب في انها جديرة بحسن الاسم وبعد الصيت وتخليد الذكر

لا سيما لانها مع كل ذلك ما تلاهت عن تدبير منزلها وادارته ولا اهملت تربية كريتها وتعليمها بنفسها ولا تصامت عن تأوهات المرضى ومطالب المساكين ولا اكتفت بما تعلمته في المدرسة ولا استقلت بالتكبر والكسل بل كانت على عكس هذه الامور حتى انها فضلت الموت فداء زوجها واقتبلته بشجاعة نادرة المثال

وهي مانون — جان فليبون مدام جان — ماري لوران ابنة حفار خاتم عتيلة سياسي مشهور ولدت في باريز في ١٧ اذار سنة ١٧٥٤ في بيت خيمت عليه عناكب العسر فسائت احواله وحوى من الاضداد في ربيه ما قلما يرجى منه الاولاد تربية حسنة وان عادل الصلاح الفساد اذ جمع بين دماثة اخلاق الام وتناعتها بما تيسر من هبات الله وطيب قلبها ورقة عواطفها وبين رداءة الاب الطباع السيء الاطباع وحقده وتذمره ، ومع ذلك اصاب الفتاة تربية جيدة وتعليم وافر بعناية هذين الوالدين لمعرفتهما قيمة التربية وادراكهما اهمية التعليم وقيامهما بما تقتضيه واجبات الامومة والابوة

فتعلمت القراءة والكتابة في الرابعة من عمرها وهذا من اغرب ما يروى عن النابغات الشهيرات واجتهدت بالتعلم ونجحت سريعاً في تلقي العلوم اخصها التاريخ والرسم والموسيقى وختمت دروسها بعلم الهيراديك

وابدت منذ حداثتها ذكاء بالغاً ورزانة عظيمة وحزماً شديداً ولم تذهب مع الاوهام بل لم تعتقد الا بما تقتنع به وترى فيه الحق وهذا نادر في

الاحداث ايضاً كندرة اشتغال اترابها مثلها بخدمة المنزل بحذاقة ودراية مع التعلم والدرس . وطالعت تراجم المشاهير وتولعت بكتاب فلوترخس سير عظماء اليونان والرومان وكانت تصحبه معها الى الكنيسة ولم تتجاوز بعد التاسعة من سنيها وهو الوقت الذي بدأت فيه الافكار الجمهورية تختلج في رأسها دون ان تفهمها كما صرحت فيما بعد وبلغ بها هذا الامر الى ان صارت تناجي به نفسها وتقابل بين عظمة اليونانيين والرومانيين وبين اختلال احوال فرنسا وتبكي لانها لم تولد اسبرطية او رومانية ثم لاتلبث الافكار الدينية ان تمحو هذه التصورات

وبما ان والديها لم يستطيعا الانفاق على تعليمها كما ينبغي ادخلتها والدتها الى دير لتتعلم فيه اجابة لرغبتها فابدت من الرزانة والاجتهاد والمحافظة على النظام والقانون والانكار لذاتها اللايقة المستقيمة ما جعلها ممتازة على البنات النزقات الطائشات وقدوة صالحة لرفيقاتها وفخراً للمعلمات والصديقات . وانجذبت الى المذهب الكاثوليكي . وبدأت بالانشاء بمكاتبة صديقة لها ذات عواطف عالية كريمة فتسهلت عليها الكتابة وازداد ذوقها تحسناً فيها

ولما عادت الى البيت وهي في عامها الرابع عشر اخذت تتمرن على الكتابة وتزاولها حيناً بعد حين وجمعت خلاصة مطالعاتها واضافتها الى ما استصحبته معها من الدير من المنتخبات اللطيفة ودرست مبادئ الطبيعيات والرياضيات ولم تر كتاباً مهما كان موضوعه الا وطالعته . وفهمت افكار بوسيه وارائه الفلسفية قبل ان تدرك السابعة عشرة وطالعت تعاليم الفيلسوفين ديكارت وزينون واللاهوتي جانسينيس وسواهم

مع كل ذلك لم تتذمر منذ تركها المدرسة عن القيام باجباتها المنزلية تحت ادارة امها لاعتبارها اياها من اهم واجباتها ولم تستنكف من مشترى لوازم

المنزل بنفسها ولا استحت بالشغل ولا رأته معيباً ولا اعتبرت اللهو غاية الحياة

فذاع صيتها بين الشبان والكهول فالوا اليها واحبوها ورغب كثير منهم في الاقتران بها واذ لم تكن بعد قد اختبرت جيداً اخلاقهم ونفوسهم رفضت . وكانت تقول لوالديها — ان الطبيعة والشرائع قد اتفقت على وجوب تفضيل الرجل على المرأة فاخجل ان اختار من لايكون اهلاً لهذا المقام السامي . واراد امير عاقل ان تكون عروسا لابنه الطائش الجاهل لتهديه بحكمتها سواء السبيل فابت على ان هذا الامير له فضل عليها اذ نشطها على التاليف والكتابة ومكنها من معاشرة الوجهاء والاعيان

وعندما بلغت الحادية والعشرين من عمرها منيت بوفاة امها فتأثرت كثيراً ولم تحتمل شدة الحزن فمرضت وبالجهد استعادت صحتها وتعافت . ومع اهتمامها بتدبير منزلها لم تهمل المطالعات والكتابات الفلسفية بل ثابرت عليها وصارت تكتب وتخطب في اهم المواضيع المفيدة فالقت خطب بوردالو وفي حفلة عمومية للاكادمية الفرنسوية بحثت في موضوع مهم عرضته اكادمية بيزانسون فدهش الناس منها وقدروا لها مستقبلاً حسناً لاسيما لما رأوا الشهرة لم تذهب بها في بوادي الاغترار والمباهاة . وشهرتها كانت سبب معرفة رولان بها فاحترمها واحبها وطلب يدها فاجابت بعد التروي بالايجاب وكان هو مفتشاً للمعامل في ليون وذا وجاهة وماثر

فاقترن به في ٤ شباط عام ١٧٨٠ وعمرها اربع وعشرون سنة وذهبا للنزهة في ايطاليا ولم ينغصها فيها سوى فراق ابيها وبعد ان اقاما سنة في باريس طبع فيها رولان مجموعة فنية ساعدته بنسخها وتنقيحها انتقلا الى اميان ومنها الى ليون حيث ذاقت لذة الامومة مع هناء عيشها وتمتعها باحسن ما تتمناه ربة بيت . ولم يكن هناؤها متأتياً من الثروة ووفرة الخدم او من مكارم اخلاق القرين فقط بل

من الاجتهاد بالقيام بالواجبات المنزلية والانسانية دون اتكال على احد فكانت عندما تنحرف صحة رولان تمرضه وتدبر الطعام المناسب له بيدها وتعامله معاملة ام لابنها على ان عمره يكاد يناهز عمر ابيها . ولما ولدت ارضعت كريمتها ودبتها وعلمتها دون استخدام مرضع ومربية وفي مصيفها في لابلاتيبه كانت تعود المرضى وتتفقد المساكين فتعالجهم وتحسن اليهم وتعزيهم

قالت مرة — صرت امرأة رجل فاضل قد ازدادت محبته لي بزيادة معرفته لي لكن شعرت بانه يخل بواجب المساواة بيننا لتأصل خلق التسلط فيه عشرين سنة اكثر مني فكنت انهمك في اشغاله لاسيما التي تتعذر عليه حتى عودته ان لا يستغني عني بشيء في العالم ولا ساعة واحدة

وهكذا كانت تعاون زوجها في جميع اشغاله الى ان جعلته مديوناً لها بشجاعته معارفه حتى وبوزارته ايضاً اذ كانت تنبه افكاره وتصحح اراءه وانشاءه وترشده في كل امر . ساحت واياه في انكلترا وسويسرا ولما مرت في جنيف شككت فيها لانها لم تر فيها تمثالاً لجان جاك روسو . ولعل ملاحظتها من جملة العوامل على نصب هذا التمثال في ما بعد

على انه ما تقدم لم يكن شيئاً مهماً في سيرتها بالنسبة الى ما يأتي لانها حالما بدأت مظاهر الثورة تلقت اخبارها برغبة وسرور كمدام دي ستال واعتبرتها خير حافظ لاستقلال فرنسا واقرب سبيل لخلاصها من انياب المفاسد واحسن بشرى بتغير تلك الاحوال فبذلت جهدها بالترغيب فيها والحض عليها ودفعت مواطنيها الى مناصرتها وتعاونت وقرينها على كتابة المواضيع المناسبة لها في جريدة ليون وجرأته على تولي الزعامة واثارة الثورة مع اصدقائها فوثق به الاحرار واتخذوه نائباً عن المدينة في مجلس الامة وكتبت مقالة بديعة في وصف اتحاد اللاثيونيين بيع منها اكثر من ستين الف نسخة فأعجبت بقديرتها الكتابية فتنشطت وسار قلمها في

ميدان البلاغة شوطاً بعيداً وقد برهنت ايضاً على معرفة جيدة باحوال بلادها ومقدرة فائقة على التدقيق بتتبع الحوادث العمومية . فاستاء المستبدون منها وحقدوا عليها وتهددوها بالقتل وترصدوها دون ان تتحول عن عزمها او تتوانى في حزمها ولو ادى بها الجهاد الى الموت كما ادى . لان من خلال ذلك ترآى لها نجاح المبادىء التي نشأت عليها واحبتها ولم تر اسبب منها لخير امتها . ورافقت رولان الى باريز عند ماذهب ثانياً عن ليون وبادرت الى المجلس العمومي وانضمت الى الجيرونديين وكانت تحضر اجتماعاتهم وتباحثهم وتبدي لهم من الاراء الجليلة بالاساليب اللطيفة ما جعلهم تحترمها كثيراً ويأتمرون باوامرها ويتهمون بنواهيها حتى أعان في مجلس الامة انها روحهم الراقية ولهذا لقبوا بالرولانديين نسبة اليها . ولم تقصر بتهفي الكتابة بجريدتهم بل ساعدت ايضاً بانشاء جريدة جمهورية لم يصدر منها الاعددان

وقد تسادت على افكار زوجها وقوى نفسه واحاطت بكل ما يرق له لتعيش على ذوقه ولما الزمت وظيفته في ليون (منتش معامل) بعد حل مجلس الامة استعادتها له في باريز وابدت علاقاتها مع النوار واخذت تبث افكارها بينهم بوجوب تأليف وزارة جيرونديه وتحضهم على ذلك وما برحت تسعى حتى فازت بتاليف هذه الوزارة وانتخب رولان فيها وزيراً للداخلية فتحققت حينئذ عاطفتها وقالت — تأثرت كثيراً من تزاحم الرجال لنيل الوظائف وتاكدت انني كنت محبوبة مثل غنيمة كريمة في دير على اني دائماً كنت ارى الذين يتوقونني بالحزم اكثر اهلية مني

ولم يطل اجل وزارة قرينها كثيراً لانه لما سئل الاشارة على الملك لويس السادس عشر باعلان الحرب على الباجرين وحلفائهم كتبت باسمه للملك كتاباً قوي الحجة عظيم التاثير . فاتخذه احد الوزراء حجة للوشاية على زميله لما فيه من الاراء الجمهورية الحرة فعزل الملك رولان فبادرت زوجته الى توطيد العلاقات

مع الزعماء الجمهوريين وتداخلت مع باربارو فاطلعها على لائحة المتحالفين التي تأول الى قلب العرش وتاليف الجمهورية وكانت قد اشارت على قرينها بعرض الكتاب على المجلس العمومي لتعلم الامة سبب خلعه ففعل ولم تكتف بان عدّ عزله ضحية لحب الوطن بل حملته على طبع كتابه وتوزيع نسخه في كل المملكة فهاجت الامة واضطرت الملك الي ارجاع الوزير الى منصبه

ونجحت كثيراً في تمثيل هذا الدور الممتاز على مرسح السياسة لما سلك اتعابها بما اصابته من النجاح وصارت تدير اشغال الوزارة باسم زوجها ودفعته الى التشكي من الفظائع التي يرتكبها الثوار فاوغرت صدورهم حنقاً عليها مما من هنا بدأت مصائبها . على ان مجدها لم يقف عند حد بلوغ رولان وزارة الداخلية بل تجاوزه الى الاستشهاد في سبيل الحرية . ولم يكن كره الثائرين المتطرفين لها ناشئاً عن جهل لمواهبها بل منشأ من سوء ظنهم بها اذ توهموها تميل للملكية ضدهم بينما هي كانت ترغب في حقن الدماء وصيانة الابرياء والاعتدال بالتخلص من الاستبداد دون ارتكاب ما تأنف منه العواطف وتشمئز له الاسماع وقد بلغ منهم سوء الظن الى ان حاولوا منع رولان من الاعتماد على ارائها وعندما انتظم في مجلس الاتحاد الوطني وسئل بان لا يترك مذكرته . صاح دانتون احد زعماء الثورة بقوله — اذا دعوا الحواجه الى وليمة فليدعوا عقيلته . انا اعرف كل فضائل الوزير ولكن نحن محتاجون الى رجال لا يسيرون حسب اراء نسائهم

واخذ اعداؤها يتهمونها بالانحراف عن جادة الثورة لانها لم تعد ترضى بسياستهم وفظائعهم الفائتة الحد فكانت تدافع عن تمسراجيدها وسعت لاستمالة فريق وافر منهم فنجحت بعض النجاح وقد شبهها الخطباء بسيرسي الساحرة التي لعبت دوراً مهماً في اوديسة هوميرس واستعظموا الولائم التي كانت تقيمها بمثابة

غذاء او عشاء للزعماء وقد وشي الاعداء بها مرة الى المجلس الوطني و بفضل فطنتها ادهشتهم واسكتتهم واضطرت الرئيس الى الاعتذار لها وتهنئتها ببرئتها مما نسب اليها وهذا اخر فوزاته قبل الظفر بالموت استشهاداً في سبيل الحرية والاستقلال

والاكثر ان روبسبيير الذي خلصته مرة من القتل كان من اشد العاملين على قتلها وقد قال لامرتين الشاعر السياسي لا شك ان مدام رولان ذكرت في سجنها الليلة التي خلصت حياة روبسبيير فيها فان كان هو ايضاً قد ذكرها وهو في اوج مجده وقوته فلا ريب في ان ذكرها كان عليه اشد من وقع السهام

ولما رأت ما آتيا ثوار المقاطعة ولم يعد بامكانها ايقافهم عند حد محدود مع ما بذلته من الجهد في حض حزبها على مقاومة المتطرفين حزنت كثيراً ولم تعد تهنأ بعيشها لاسيما وكل يوم كان يبدو لها فيه خطر جديد وصارت حياتها معرضة للموت في كل آن فاشير عليها ان تتم خارج سراي الوزارة فلم تخف ولم تفعل اخيراً بشيء من تحسن الحال فعرضت رولان على الاستقالة فترك الوزارة. ولم يمض المتطرفون من اضطهادها حتى ذكروا باب دار الحكم بالقبض عليها ومحاكمتها

فسهلت لرولان سبيل الهرب وكان بامكانها الخلاص لكنها ابت وقالت — الاهتمام بتخليصي من الظلم اصعب عليّ من احتماله — وبينما حاها البطل بوربير. قبض عليها وانتهت في سجن مظالم مخيف فابدت عظمة سامية وقدوة جليلة للمسجونين

وعندما هيأ لها اصدقاؤها سبيلاً للفرار رفضت لئلا تنبه غضب اعداء قريبها وتثير مكائن حقدهم عليه فيحنقون عليه ويذيقونه مر النكال وفضلت البقاء على عزمها ولم تنثنه بل تذكرت في سجنها الامبراطور تاسيت الروماني الذي قتل بعد ستة اشهر من توليه العرش فتألمت له من اعماق فؤادها وكانت لا تنام كل ليلة الا بعد ان تطالع بعض اقواله الممثلة لحالتها. وتحملت مضض السجن ورطوبته

وعفته بشجاعة وصبر نادرين تصورها بان النتيجة تكون موافقة لنفع بلادها وكانت تصرف أوقاتها بمراجعة اللغة الانكليزية وكتابة المقالات السياسية وابدت من ثبات الجاش عندما استنطقوها ما ادهش الحاضرين وكانت تدافع بجلد فائق الوصف الى ان سألوها ما يمس بشرفها فتأثرت ولم تعد تعي : ولما جاءها المحامي شوفولا كارد ليفاوضها في المواد التي اعدها للمدافعة عنها استقبلته بسكينة وكلمته ببرودة ثم بكل تأثر سحبت خاتماً ثميناً من اصبعها وقدمتها له وقالت – لا تاتي غداً الى المحكمة لئلا انتهك • دون ان تخلصني • اقبل هذه الاجرة الوحيدة التي اقدر ومعرفتي للجميل ان اقسمها لك الان لانني غداً لا اكون

وهكذا كان فقد حكموا عليها في الغد بالاعدام وتر روا تنفيذ الحكم حالاً فاحتملت المحاكمة وسمعت الحكم بنتيجى الشجاعة وفيما هي ذاهبة الى المحكمة ثوبها الابيض الناصع وشعرها المدلى الى صدرها كان الناس يرافقونها ويبكون من حزنهم عليها لاسيما النساء كما يظهر من الرسم في صدر الحسناء وهي تعزيهم عنها بتأثر لايوصف وتنشطهم على احتمال المصائب كما كانت تنشط السجناء البائسين الذين حتى اشرسهم واشقاهم كانوا يحبونها كثيراً واحدهم قدم لها سريره تكرماً عندما نقلت لمكان رطب عفن بلا غطاء ولا فراش

وكان رفيقها الى ساحة الاعدام مدير اوراق المملكة لامارش فرأته خائفاً فبشت بوجهه بلطف واخلاص فتبسم ولما وصلوا بها الى الساحة التفتت الى تمثال الحرية وقالت بلهجة بديعة – ايتها الحرية كم من الجرائم يرتكب الناس باسمك ايتها الحرية – كم يتلاعبون بك اليوم

وعندما هموا باعدامها طلبت قلماً وورقة لتكتب خواطرها امام آلة الموت كأنها في المكتب اذ لم تفقد شيئاً من ادراكها وهدائها بتة فلم يجيبوا طلبها فاحنت رأسها الى الجلاد بصفاء وجه وسكون فاعدمها الحياة وكان ذلك في

الثامن من تشرين الثاني سنة ١٧٩٣ قبل ان تبلغ الاربعين عاماً من عمرها

وصفها ريوف الكاتب بانها كانت ذات روح جمهورية في جسم مجبول من اللطف ومصوغ من اداب الزعامة الحقيقية . كانت تتكلم من نافذة السجن بحرية وشجاعة رجل عظيم بكلام جمهوري بفرنسية عذبة : وكانت تلوم اصدقاءها لتطرفهم . وعندما كانوا يهنئون لها آلة الموت كانت اعجوبة الثورة . السجناء كلهم كانوا مندهشين متحيرين . حديثها كان مرتباً وقوراً رزيناً بلا برودة . فتتكلم بتزاهة وصفاء ورنة لهجتها الموسيقية لا تشبع الاذن منها . وكانت عظمتها تبدو بوضوح عندما تبكي لذكر كريتها وقرينها لما فيها من مزج لين العواطف وشدتها

وكأنها كانت عالمة بما سيحل برولان يقولها انه لا يعيش بعدها اذ بعد وفاتها بستة ايام قد انتحر تاركاً ورقة صغيرة كتب فيها انه لم يعد له صبر على الحياة في عالم ملوث بالاثام . وليس هذا عليه بكثير لان حياتها العائلية لم تكدرها غيمة نكد ومنزله كان مديراً بالترتيب والاقتصاد وبعد النظر وجودة المبادئ وقد قالت عنه مرة — انه لم يكن ضعيفاً في حسن الادارة وانما براسلتي ازدادت قوته وصارت اكثر تأثيراً لانني كنت اضع في كتاباته مزيجاً من الشدة واللطف بقوة الحق وحسن العواطف التي لا تختص بها الامرأة حساسة ذات عقل سليم

اما معارفها فكانت واسعة عميقة . وعقلها كبيراً وقلبها كريماً . سيالة القريحة تكلماً وكتابة . تكتب في الانكليزية والايطالية بسهولة ودقة وفي الفرنسية لغتها الاصلية بفصاحة وبلاغة

تغيرتها الوطنية ومحبتها للانسانية وشجاعتها ونشاطها وفطرتها الطيبة وارتقاؤها بالكد والاجتهاد وعظمتها ونباتها . مبادئ سامية حرية بان تلقنها الامهات للبنات